العقل في مواجهة المال

الحرب بين المثقفين والرأسمالية

د. محمد حدوي

أستاذ مؤهل بقسم علم الاجتماع
جامعة السلطان مولاي سليمان
بني ملال – المملكة المغربية

بيانات الكتاب

المؤلف: ألان سيدني كاهان
الناشر: المركز العربي للأبحاث
عدد الصفحات: ٤٣٠ صفحة

الطبعة: الأولى. سنة النشر: ٢٠٢٣
مكان النشر: الرباط - المغرب.

كلمات مفتاحية:

الرأسمالية؛ المال؛ المثقف؛ الحركات الاجتماعية؛ الاغتراب؛ العولمة

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2023.346809

مقدمة

قصة العقل في مواجهة المال، أو بالأحرى قصة مناهضة المثقفين للرأسمالية، قصة طويلة ومثيرة يكثر عنها الكلام. بدأت الحكاية منذ أكثر من قرن ونصف تقريبًا، حين شرعت مجموعة من المثقفين الغربيين ومجموعة متنوعة من الحركات والأفكار والمواقف على رفض ومناهضة الرأسمالية، ومع اندلاع الأزمة المالية لسنة ٢٠٠٨، اكتسبت حكاية المناهضة دعمًا كبيرًا، ولاتزال إلى اليوم مثل هذه الحركات تنشط في الغرب وحتى في الشرق بأشكال جديدة ومتنوعة، مثل الحركات المناهضة للعولمة، وحركات الخضر، والجماعاتية، وحركات العصر الجديد وغيرها...، لقد سعى هؤلاء جميعًا بما أوتوا من بيان إلى استبدال النظام الرأسمالي بنظام آخر أقل عنفًا وأكثر عدالة وإنسانية.

إن مواجهة المثقفين والحركات المتنوعة المناهضة للرأسمالية يمكن أن نلخصها في مواجهة العقل للمال، وهذا ما عبر عنه المفكر والباحث السوسيولوجي (Alan Sidney Kahan) "ألان سيدني كاهان" في كتاب له نشر لأول مرة باللغة الإنجليزية تحت عنوان: "العقل في مواجهة المال: الحرب بين المثقفين والرأسمالية"، هذا الكتاب الذي ترجمه حمد مطيع إلى اللغة العربية سنة ٢٠٢٣، وقام بتدقيقه عدنان هويروى، والكتاب من ٣١

صفحة. ويروم هدف الكتاب الإسهام في تبيان وثيرة تصاعد معاداة الرأسمالية (المال) من طرف المثقفين (العقل) والعواقب الوخيمة على كل الأطراف المعنية بالحرب المميتة وصعوبة إنهاء الصراع وضرورة التخفيف منه، وإلا فإنه سيصبح محتم على الناس أن يعيشوا عيش زمن طويل من الثورات المنكوبة.

وتكمن أهمية الكتاب في محاولته لإيجاد حلول لهذا الصراع. وقد عرض المؤلف أفكاره من خلال **ثلاثة أقسام من الكتاب**: القسم الأول تناول فيه مسألة العقل في مواجهة المال. وفي القسم الثاني تطرق إلى ما وصفه بسخط المثقفين في القرن التاسع عشر وخاصةً في الفترة ما بين ١٨٥٠و١٩١٤، أما القسم الثالث والأخير من الكتاب، فقد خصصه لعرض انتصارات ومآسي الروح المعادية للرأسمالية في القرن العشرين وخاصةً ما بين سنة ١٩١٤ و٢٠٠٢.

القسم الأول

استهل المؤلف في هذا القسم كلامه بالحديث عما وصفه بالبرج العاجي الذي هو في حالة حرب فظيعة مع الرأسمالية، وتخاض باستعمال أسلحة فتاكة والحصيلة مرشحة للارتفاع إذا لم يتعلم الناس طريقة أفضل للتعامل مع هذا الصراع. ويقصد بـ "البرج العاجي" المثقفين الذين يمثلون العقل، وبين كيف أن العديد من المثقفين الغربيين على مدار ١٥٠ سنة الماضية عبر عن رفضهم للرأسمالية والرأسماليين من خلال الانضمام إلى العديد من الحركات المختلفة، بما في ذلك القومية ومعاداة السامية والاشتراكية والفاشية والشيوعية والثقافة المضادة. معتبرًا أن الولايات المتحدة تمثل نموذجًا لرؤية كونية فجة وجشعة تجسدها الرأسمالية التي تضع العديد من المثقفين في وضع المعارضة الدائمة. وإذا كانت الأيديولوجية الماركسية هي المهيمنة في الستينيات من القرن الماضي، فمع تقادمها، أصبحت اليوم بالية، حيث تم استبدالها بخطاب وإيديولوجية مناهضة للعولمة. وهنا يطرح المؤلف سؤالاً يبدو لنا وجيهًا: **لماذا يكره العديد من المثقفين الرأسمالية؟** وأي عيب يعتريها؟ ويجيب المؤلف بإجابات بديهية مستمدة من الدور الذي يلعبه المثقفون في المجتمعات الحديثة ومن التقاليد التاريخية التي تلهمهم رغم أن المثقفين يشكلون فئة قليلة وسط أولائك الذين يحتقرون الرأسمالية. وهنا للتوضيح أكثر، لتدقيق المفاهيم، استبدل المؤلف كلمة "الرأسمالية "بالمصطلح الأقل شحنة سياسيًا وهذا المصطلح هو "المجتمع التجاري"، الذي يعني به المجموع الكلي لطريقة تنظيم الإنتاج الاقتصادي، والأفراد، والتكنولوجيا، والقيم، التي ترتبط بهذه الشكل من الإنتاج.

ويحدد أوصاف المثقفين رغم غموضها بكونهم أشخاص ينحدرون من الأوساط الأكاديمية والأوساط البوهيمية الذين غالبًا ما يتألفون من الأساتذة الجامعيين والكتاب والفنانين (الرسامين والشعراء...) الذي قال عنهم بأن لطالما كان التعليم العالي ضروريًا لتحديد المثقفين غير أنه لم يعدّ كافيًا، وأضاف إلى هؤلاء مثلاً أساتذة اللغة الإنجليزية بسبب طبيعة اللغة التي يمتلكونها. فالتعليم الذي يحظون به يمكنهم من الانفراد بخصوصية معينة وأسلوب حياة مغايرة سواء أكانوا أكاديميين أم بوهيميين، وهذا التعليم يمنحهم مكانة ويجعلهم من أقلية نخبوية صغيرة من طبقة أرستقراطية تحقق وجوديتها في المجتمع رغم أنهم غير معترف بهم بشكل رسمي.

ونظرًا لكون أن المثقفين يكرهون الرأسمالية، يثير المؤلف سؤالاً واضحًا: لماذا تتحملهم هذه الأخيرة بكل تضارباتهم وتعقيداتهم؟ أولاً، لا يمكن التخلص منهم، وثانيًا أن الرأسمالية تجد فيهم منفعة وإفادة ليس لأن المثقفين يساهمون في الابتكارات التقنية والعلمية الجديدة، بل إنهم يقدمون للرأسمالية مساهمات غير مقصودة أخلاقيًا وسياسيًا رغم الانتقادات التي يكيلونها لها. وبما أن المثقفين استفادوا من تعليمهم والتقاليد الفكرية التي أثرت في صراع العقل ضد المال، فإن الرأسمالية التجأت إلى مقاومتهم بمحاربة النظام التعليمي الذي ينتجهم. ولفهم مَنْ هم المثقفون، يرى المؤلف أنه «علينا أن نفهم كيف يرتبطون بالمجتمع الديمقراطي. ويجب علينا أيضًا أن نسرد الحكاية الطويلة للحروب بين العقل والمال. وحينما سنتمكن من فهم حيثيات هذا الصراع وأنماطه المتكررة، سنتمكن حينها من السيطرة عليه».[1]

في البدايات الحديثة للرأسمالية، كان هناك نوع من انجذاب المثقفين البارزين، إلى اعتناق الرأسمالية، ولفهم الخلفية التاريخية التي دفعت هؤلاء إلى اعتناق

الرأسمالية، يتساءل المؤلف: ما الذي دفع غالبية المثقفين الغربيين البارزين إلى اعتبار الرأسمالية مفيدة في الفترة الممتدة من أواخر القرن السابع عشر إلى أوائل القرن التاسع عشر؟ للإجابة على هذا التساؤل، يرى المؤلف أنه وجب علينا فهم الانجذاب غير المسبوق الذي مثله المجتمع التجاري بالنسبة للمثقفين أولاً، وفهم سبب انتهاء هذه العلاقة ثانيًا، لكي نتمكن من معرفة سبب نشوب الصراع الذي أعقب ذلك ثالثًا. في البداية أظهرت الرأسمالية نوعًا من الصداقة مع المثقفين لأنها تخفض التفاوتات الاجتماعية والسياسية وتعمل على تقليص امتيازات الطبقة العليا، والرفع من مستوى الطبقة الوسطى والفقيرة عن طريق التجارة، وفي هذه المرحلة تم إبراز شمولية منافع الرأسمالية لجميع الفئات. وامتلك المثقفون عدة أسباب اجتماعية وفكرية وجيهة دفعتهم لتفضيل الرأسمالية في هذه الفترة، وفي هذا يقول المؤلف: «إن تأييد المثقفين للرأسمالية ناتج نسبيًا عن استيائهم من الرُّتب والامتيازات ومكانة الطبقة الأرستقراطية».[٢]

وبعد هذه الفترة الذهبية، ساهمت العديد من العوامل الاجتماعية والفكرية والتاريخية في نهاية ما سماه المؤلف بـ"شهر العسل" وتلاه مباشرة صدام لاذع مثل صراع ما بعد الطلاق. في إنجلترا، في بدايات سنة ١٧٩٠، قلق الناس من الهجمات المتتالية على رجال الأعمال والتي اعتبروها تساهم في "ازدراء التجارة والصناعة". باختصار، لقد اعتبرت العواقب الأخلاقية للرأسمالية محورية ومركزية الحجج التي استخدمها المثقفون لنزع الغطاء عن أخلاقيات الرأسمالية. التي نزعت الطابع الأخلاقي للتجارة حين يتعلق الأمر بالثراء والترف. وقد مثَّلت مثل هذه التبريرات إشكالية حتى بالنسبة لأشد المثقفين راديكالية.

القسم الثاني

يعالج المؤلف في الجزء الثاني من الكتاب كيف هاجم مثقفو القرن التاسع عشر(١٨٥٠و١٩١٤) الرأسمالية، وكيف مثَّل التأكيد على إخفاقاتها الأخلاقية القاسم المشترك في جميع انتقاداتهم لها تقريبًا. وكيف يتعرض كل من الرأسماليين والرأسمالية للهجوم، وتُصيب سهام نقد المثقفين رجل الأعمال أيضًا، وشخصيته وأسلوب حياته. ولمثل هذه الأسباب، فقدت الرأسمالية سمعتها الطيبة، وأضحت مصطلحًا سلبيًا عند مجموعة من المثقفين، وخاصة الفئة غير المسيسة، فقد كانت غير محبوبة عندهم. يُعبِّر جميع الكتاب الذين عرضهم المؤلف عن عدم فهمهم لماهية الرأسمالية وطريقة عملها. ويقر على أن «منظور المثقفين للعالم أصبح غير متناسب مع طريقة فهم البرجوازية، أو بالأحرى الرأسمالية ككل، بطرقهم المختلفة».[٣]

واضح جدًا أن أدب القرن التاسع عشر أَضَرَّ بشدة بالسمعة الأخلاقية للرأسمالية، لهذا انتقل المؤلف إلى عرض الطرق التي ساهم بها المثقفون بشكل مباشر في صنع أو التأثير على الحركات السياسية المعادية للرأسمالية في القرن العشرين. وهكذا انتقل بتحليله بخصوص الهجمات الممنهجة على الرأسمالية، وقبلها البدائل المقترحة، من عالم البوهيمية إلى الحقل الأكاديمي. فمن بين جميع المثقفين المعاصرين الذين انتقدوا الرأسمالية بشكل منهجي ومبسط واقترحوا بديلاً لها، اعتُبر كارل ماركس الأكثر شهرة بينهم لأنه كتب بقلم مغمور بالغضب. وفي رؤيته للرأسمالية، ينتقد ماركس المال الذي أعده أكثر عامل يجرد البشر من الإنسانية، ويرفض الرأسمالية لأسباب أخلاقية واقتصادية. ويرى أن المال رغم أنه يحقق أي هدف. رغم هذه القدرة التي يمتلكها، يظل وهمًا وسرابًا فقط وقد عبر عن كرهه للمال الذي قال عنه أنه «إله إسرائيل الغيور، الذي يرفض أن يقف إله آخر في وجهه».[٤] وبسبب المال، تخلّى النظام الاقتصادي والأفراد الذين يحركونه عن إنسانيتهم.

بعد ماركس والماركسيين المعادين للرأسمالية في القرن التاسع عشر والذين دافعوا عن المجتمع ضد ويلات التجارة، نجد في المرتبة الثانية، أحد الآباء المؤسسين للسوسيولوجيا الحديثة، ويتعلق الأمر بفرديناند تونيز (١٨٥٥-١٩٣٦) الذي استند على عامل الجذور الأخلاقي في رفضه للرأسمالية. ما يميّزه عن ماركس مرتبط في أن تونيز لا يملك أي شيء إيجابي ليقوله عن الرأسمالية. على الرغم من أن العمل الأكاديمي يستلزم الحياد، وقد اشتهر تونيز بكتابه "الجماعة والمجتمع المدني" الذي نُشر أول مرة في عام ١٨٨٧. ويركز هذا العمل على الصراع المنتشر عالميًا بين الجماعات الصغيرة المبنية على أسس القرابة والجوار ومجتمعات السوق التنافسية

الكبرى، فيبحث هذا الموضوع في جميع جوانب الحياة: في البنى السياسية والاقتصادية والقانونية والعائلية، وفي الفن والدين والثقافة، وفي بنى الذاتية والشخصانية وفي أنماط الإدراك واللغة والفهم البشري.[٥]

ويرى تونيز أن الجماعة المشتركة تمُثل بديلاً للمجتمع. لكنه لا يخبرنا كيف نستطيع الوصول إلى هذا الحل. ويرى أن التجارة لا تتوافق والجماعة المشتركة لأن التجارة تدمر الجماعة المشتركة وتستبدل بالفردانية التنافسية التي يتطلبها المجتمع. ليخلص تونيز إلى أن المجتمع الغربي يتطور بعيدًا عن الجماعة المشتركة نحو المجتمع التجاري. و«المجتمع يحول الناس إلى أفراد منعزلين يدخلون في صراع بعضهم مع بعض».[٦] وهذا التطور يشكل كارثة. إلى جانب تونيز، نجد فيبلين (١٨٥٧-١٩٢٩) عارض بنزعته البروتستانتية الرأسمالية على أسس أخلاقية تختلف عن الأسس الخاصة بتونيز، حيث انتقد فيبلين الرأسمالية لأنها تحدُّ من الإنتاج بدل تشجيعه. ويخلص فيبلين إلى فكرة مفادها أن «كلما زاد عدد وكفاءة رجال الأعمال في الجماعة (شريطة تساوي باقي المتغيرات)، كلما أضحى الأمر سيئًا بالنسبة لبقية الجماعة المشتركة...».[٧]

في إطار البحث عن بدائل للرأسمالية، يسوق المؤلف البدائل التي اقترحها المنظر الاجتماعي ماثيو أرنولد (١٨٢٢-١٨٨٨) وفريدريك نيتشه والتي هي بدائل يرى أنها مبنية على فكرة "تشجيع نوع معين من الشخصية" أكثر من "فكرة إنشاء مجتمع جديد". ويوضح كيف أن عداء أرنولد ونيتشه للرأسمالية يستند على الضرر الذي تلحقه بالفرد من جهة (تعمل على شلّ حركية الأفراد الذين يحاولون التشبه بالمثقفين)، والقيود التي تفرضها على الاستقلالية والإبداع من جهة ثانية. بالنسبة لأرنولد، تُعتبر الثقافة بديلاً للتجارة. يوُصنَّف دفاع أرنولد عن الثقافة ضد الرأسمالية على أنه دفاع أرستقراطي. ونفس الشيء بالنسبة لنتشه الذي عُرف بميوله ودفاعه الشرس عن الأرستقراطيين بشكل أساسي، يفضل "الجمال والعقل مثل أرنولد، ونجده يكن أحاسيس الازدراء لكل فرد كرس حياته لجمع المال، فهو يحتقر التجارة كمهنة. ويرى أن «المشكلة، لا تكمن في أن الرأسمالية تُجرِّد الأفراد من إنسانيتهم، بل في ملاءمتها لتوجهات الأفراد الحمقى الذين يُشكِّلُون غالبية المجتمع».[٨]

مثل العديد من المثقفين الآخرين الذين عرضناهم، لا يُعتبر ألكسيس دو توكفيل مختلفًا كثيرًا عن أرنولد ونيتشه اللذان اتخذا موقفًا مناهضًا للرأسمالية، فهو يخشى أن ينغمس الأفراد في دائرة تحقيق ما سماه بـ"الأهداف التافهة" في كنف الثقافة التجارية ما يعجل من سقوطهم. فهو يعترض الرأسمالية لأنها في نظره تشكّل تهديدًا لخصال الشخصية الإنسانية. ولهذا سعى توكفيل إلى إعادة إحياء الأخلاق الإنسانية. باختصار، يمكن عمومًا قراءة الكثير من كتابات القرن التاسع عشر باعتبارها خُطبة واحدة طويلة مناهضة للرأسمالية. وعلى غرار معظم الخُطب، لم تصل لدرجة إقناع جمهورها من الطبقة الوسطى بالتخلي عن خطاياهم، لكن، في نفس الوقت، كانت فعالة جدًا في إقناعهم بفكرة أنهم آثمون.

القسم الثالث

لقد خصص المؤلف هذا القسم لعرض انتصارات ومآسي الروح المعادية للرأسمالية في القرن العشرين وخاصةً في فترة ما بين (١٩٠٠ - ١٩١٤). يستهل هذا القسم بعرض تحليل دوتوكفيل للمجتمع الديمقراطي وركز على كتابه "الديمقراطية في أمريكا"، هذا التحليل الذي اعتبره محوريًا في هذا الكتاب. وذلك لتفسير أسباب ميل العديد المثقفين إلى القيام بالثورات. والأهم من ذلك كما يقول، "قدرتهم على توفير عدد كاف من المناصرين للنجاح في تدبير هذه الأخيرة".[٩] ورغم ذلك يعترف بأنه في ظلّ كل هذا، وفي ظل رفض الرأسمالية، لا طبيعةُ المجتمع الديمقراطي ولا طبيعةُ الطبقة المثقفة كافيتين لتفسير موجة الثورات التي اندلعت في العالم الغربي بعد الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ – ١٩١٨).

وأدت الأزمة الاقتصادية والكساد الكبير في سنة ١٩٢٩ إلى إقناع المزيد من الأفراد والمثقفين برفض الرأسمالية والانضمام إلى حركة أو أكثر، وذلك قصد استبدالها ببديل أفضل. وهكذا بدأ التفكير في إنشاء مجتمع جديد، وظهرت أربع حركات معادية للرأسمالية احتلت مكانة خاصة في الساحة الفكرية، حيث شكلّت كل من الشيوعية والفاشية والكاثوليكية الاجتماعية مجموعة حركات ثورية معادية للرأسمالية. لكن لم يكن كل المثقفين الذين رفضوا الرأسمالية ثوريين. فحتى في صفوف منتقدي الرأسمالية، لم يرغب الجميع في رفضها

بشكل كلي. وهكذا ظهرت الحركة الإصلاحية المتمثلة في الصفقة الجديدة.

الشيوعية

لقد وجدت بعد الحرب العالمية الأولى أسباب كثيرة جعلت الشيوعية جذابة بشكل خاص للمثقفين. أصبح العديد من المثقفين بعد الحرب العالمية الأولى شيوعيين، وأضحى العديد منهم مناصرين لا منتمين للقضية الشيوعية. ولعبت الثورة الروسية، بالنسبة للمثقفين، دورًا ثنائيًا متمثلاً في "الحقيقة" و"الأسطورة". لقد كان تأثيرها هائلاً. لقد بُشِّروا بالاتحاد السوفيتي على أنه "فردوس اقتصادي" بديل عن الرأسمالية. وتعتبر معاداة الرأسمالية مفتاحًا لفهم سبب استمرار المثقفين في دعم الشيوعية. أراد المثقفون الشيوعيون أن يكوِّنوا كتلة واحدة مع الشعب ودافع العديد من المثقفين عن الثورة ليس بسبب ما حققته، ولكن لما تنوي القيام به، ما يعني أن الحكم عليها سيكون من منظور أخلاقي غير سياسي ولا اقتصادي. وتباينت الأعداد النسبية للشيوعيين الغربيين ومناصريهم حسب تغير الظروف. وصل عدم رضاهم عن الرأسمالية إلى نقطة يرون فيها أن عدم تزايد عدد المثقفين الشيوعيين متعلق بوجود العديد من الحركات الأخرى التي تناشد كرههم للرأسمالية. ومن بين هذه الحركات، كان هنالك منافس واحد رئيس وثوري ونافذ: الفاشية.

الفاشية

اختلف المثقفون حول وصف الفاشية بين من وصفها بحركة ثورية، ومَنْ يعتبرها حركة معادية للرأسمالية. ورغم تردد المثقفين وخاصةً المؤرخين حول تصنيف الفاشية، فقد تم الاتفاق على أنها تتشارك في العديد من سمات النقد الاشتراكي والشيوعي للرأسمالية التي يُبدُون قبولاً لها. ومن جهة ثانية، فهي مجرد واحدة من الحركات المتنافسة التي تشترك في كراهية مشتركة للمال أولاً، وقيم وحياة البرجوازية ثانيًا". لقد جمع الفاشيون بين النزعة القومية والنقابوية، وكانوا يفضلون استخدام فكرة تونيز في التمييز بين الجماعة والمجتمع. ويتشارك المثقفون والفاشية في استنزاف الشرعة الأخلاقية للرأسمالية. لقد كانت الفاشية في وضع جيد كحركة معادية للرأسمالية لجذب العديد من المثقفين (وقد فعلت ذلك) سواء بالتحاقهم كأعضاء في الأحزاب الفاشية أو مناصرين بدون عضوية، وساهمت مواقف المثقفين المعادية للرأسمالية بشكل كبير في صنع تأثير الفاشية. إذا كان قد هاجم الفاشيون المثقف باعتباره أرستقراطيًا منعزلاً، وادعوا في كثير من الأحيان كرههم للمثقف، فقد أثنوا عليه في نفس الوقت باعتباره كاهنًا للقومية. وكان الفاشيون بزعامة هتلر وموسوليني يسعون إلى جعل الاقتصاد خاضعًا للأهداف العُليا للأمة المتجسدة في الدولة.

الكاثوليكية الاجتماعية

في وجود طريقة أخرى أكثر تقليدية لرفض العالم والمتمثلة في الدين، يرى المؤلف أن جميع المثقفين الذين قرروا محاربة الرأسمالية، أو القيام بثورة ضدها، لم يتحولوا جميعا إلى الفاشية أو الشيوعية، بل منهم مَنْ التجأ إلى التقاليد المسيحية، التي قدمت فيها الكاثوليكية مجتمعًا بديلاً معاديًا للرأسمالية. ولما كانت العديد من أفكار الشخصانية أفكارًا نموذجية للكاثوليكية الاجتماعية بشكل عام وكان بالإمكان تسمية هذه الحركة بـ"الكاثوليكية الاجتماعية" التي اعتنقها رجال ابتعدوا عن الانحطاط البورجوازي. فقد اعتمد رواد الحركة الشخصانية بشدة على التمييز بين المجتمع مقابل الجماعة المشتركة التي تحدث عنها تونيز. وقاموا بالحديث عن الجماعة المشتركة عوض الدولة كما تفعل الفاشية، أو عن "الطبقة" كما تفعل الشيوعية، أو "الفرد" كما تفعل البرجوازية (ومن هنا جاء استخدامهم "للشخصية").

وشددت الشخصانية على دعم كل من الجماعة المشتركة والشخص ضد الرأسمالية. ولتمييز نفسها عن الحركات البديلة المحصورة بين الرأسمالية أو الشيوعية، غالبًا ما أشار الشخصانيون إلى حركتهم على أنها "القوة الثالثة" أو "الطريق الثالث"، وعلى هذا الأساس، كافح أفراد الحركة الشخصانية من أجل طريقهم الثالث باستمرار للحفاظ على هويتهم الخاصة. فقد مثَّلت الحركة "الشخصانية" التي أسسها الفرنسي إيمانويل مونييه أكثر الحركات الكاثوليكية المعادية للرأسمالية نفوذًا بين المثقفين. ويُعتبر تطرُّق مونييه للحياة الصالحة مثالاً كلاسيكيًا لظاهرة وُجدت في جميع الحركات الثورية المعادية للرأسمالية التي يدعمها المثقفون. وشددت الشخصانية على انتقاد أسلوب الحياة البرجوازي أكثر من نقدها للنتائج الاقتصادية للرأسمالية.

الصفقة الجديدة

لم تكن كل الحركات الاجتماعية ثورية، فإذا كانت الشوعية والفاشية والكاتوليكية الاجتماعية قد تبنت الثورة ضد الرأسمالية، فإن حركة الصفقة الجديدة قد تبنت الإصلاحات التي اعتُبرت أكثر ثورية من الخط الثوري الذي تبنته الحركات الثلاث. فعلى الرغم من أن رواد الصفقة الجديدة لم "يعتنقوا الاشتراكية"، فقد كانوا يتصرفون باسم الجماعة المشتركة ضد الرأسمالية، وكانوا لا يسعون إلى تدمير الرأسمالية، بل كانوا يعملون من أجل الحد منها. وكان "رفضها لسياسة عدم التدخل" كافيًا لجعلها عدوة للرأسمالية في نظر الرأسمالي العادي. أحبّ أنصار الصفقة الجديدة الجمع بين اللغة الأخلاقية ولغة الكفاءة الاقتصادية، وبدلاً من مناشدة الثورة لإنقاذ الحضارة من الرأسمالية، ناشد أنصار الصفقة الجديدة التخطيط والتنظيم.

لعب المثقفون سواء كانوا ثوارًا أو مناصرين لا منتمين دورًا محوريًا في الويلات السياسية في القرن العشرين. ويرى المؤلف بأنه كان بإمكان العديد من المثقفين رفض الرأسمالية دون الحاجة إلى دعم القتل الجماعي أو إلغاء الحكومة الديمقراطية. ويبين المؤلف أن الكراهية الأعمى والعنيفة للرأسمالية دفعت الأفراد الأذكياء إلى ارتكاب أخطاء غير محسوبة، والاستمرار في ارتكابها. وتأتي هذه الكراهية نتيجة شبه ضرورية لهوية المثقف ووضعه الاجتماعي. ويعزي المؤلف سبب هذا الجهل إلى حاجة المثقفين إلى عالم مسحور تغذيه الأوهام المعادية للرأسمالية وحب الانتماء إلى هوية معينة تساعد المثقفين على التغلب بشدة على انعزالهم عن المجتمع تفاديا لواقع الاغتراب. في الحقيقة، كما يقول المؤلف «كان المثقفون في صدد البحث عن دين. ومن هذا المنطلق، تمكّن الإيمان الثوري من توفير ذلك عكس الرأسمالية».[١٠] وكما العادة، يؤدي الالتزام الديني العميق إلى خلق رؤية ضيقة لعالم تغذيه الأوهام، وانخرط المثقفون في دعم هتلر، ولنين، وستالين، وموسولوني، ولاحقًا ماو، وبول بوت، وكاسترو، وغيرهم لخوض صراعات ممنهجة ضد الرأسمالية. ليخلص إلى أنه، في عالم حُصر فيه الخيار السياسي الوحيد المتاح للمثقفين بين الشيوعية والتجارة، شهدت الحرب بين العقل والمال تراجعًا تكتيكية من طرف العقل بعد الحرب العالمية الثانية، وأبقى العقل نيرانه موجهة في وجه المال. وقد تغيرت الظروف بين الحرب العالمية الأولى التي ضاعفت من الأهمية السياسية للصراع بين العقل والمال مع ظروف ما بعد الحرب العالمية الثانية التي قللت من أهميتها. وهكذا، تقلص دور المثقفين وأصبحوا يعانون جراء ذلك من وهن سياسي. واكتسب النقد الثقافي، الأرستقراطي والديمقراطي، أهمية أكبر مع تلاشي الأهمية الثورية للشيوعية والفاشية وحتى تلك الخاصة بالصفقة الجديدة.

لقد اتّخذ رد الفعل الأرستقراطي للمثقفين ضد الرأسمالية بعد الحرب العالمية الثانية في نظر المؤلف عدة أشكال، لكن كان للبعض منها، الموجود في أعمال هايدغر ومدرسة فرانكفورت وفوكو، تأثير خاص. فبالإضافة إلى أعمل هيدغر وفوكو، طرحت مدرسة فرانكفورت قراءة قوية خاصةً لأسطورة الاغتراب، حيث هيمن الاغتراب الشامل على تحليلهم.

تبقى تعليقات هايدغر على التكنولوجيا الأكثر صلة برد الفعل الأرستقراطي للمثقفين ضد الرأسمالية بعد الحرب العالمية الثانية. هايدغر الذي أعرب لباقي المثقفين عن العديد من الأفكار التي اتخذت شكلاً شائعاً في الثقافة المضادة وحركة البيئة. أما فوكو، فقد أعطى أهمية كبرى للخطاب، لأن اللغة مرتبطة بممارسة السلطة والسيطرة. وأن اللغة أو الخطاب يُمثلان في الأساس انعكاسًا لبنية المجتمع الطبقية. فاللغة عند فوكو غير محايدة. ويمنح فوكو أهمية كبيرة للأخلاقيات أكثر من السياسة.

في النصف الثاني من القرن العشرين، وبعد التعافي من الأثر المادي والحرمان الناتج عن الكساد الكبير، انغمس جيل كامل من العالم الغربي بشراهة في جني الأموال، مما ساهم كرد فعل في بروز حركة الثقافة المضادة لهذا السلوك. وتسعى هذه الثقافة المضادة إلى تغيير الأفراد أولاً، والمؤسسات ثانيًا. مثلت هذه الثقافة ثورة ثقافية ديمقراطية معادية للرأسمالية سمحت للمثقفين بخلق اتصال مع الشعب. كانت هناك روابط قوية بين التركيز الروحي للثقافة المضادة ورغبة المثقفين في فرض بُعد أخلاقي على مجتمع رأسمالي متمرد. حيث عبرت هذه الثقافة المضادة عن التفاؤل، حيث نشرت «أيديولوجية الحب العالمي ووحدة الوجود الصوفي،

وخلقت ثقافة الرُّحَّل من الحب والجنس والمخدرات وموسيقى الروك أندرول وتم تسميتها على أنها شكل من أشكال الرومانسية المناهضة للرأسمالية».[11] وسيطرت على الأحداث السياسية، ورفض الهيبيون "أسلوب الحياة الأمريكي". وإن لم يكن الهيبيون مثقفين بمعنى الكلمة، فقد شكلت ثقافة الهيبز"Hippie" ثقافة مضادة، وانتشرت هذه الثقافة في أرجاء العالم رغم أنها لا تجسد موقف الأغلبية.

لقد أثارت حركة الثقافة المضادة ردة فعل ما يسمى بالمحافظين الجدد الذين تنطبق عليهم صفة المثقفين حسب التعريف الوارد في الكتاب. وهؤلاء المحافظون الذين لهم تأثير كبير من القراء عمومًا وفي السياسة الأمريكية على الرغم من كونهم مجموعة صغيرة. وفي مواجهة الثقافة المضادة، دعا المحافظون الجدد إلى العودة إلى القيم الأخلاقية التقليدية، وفضلوا عدم التعاطف مع الماركسية ومفهوم الاغتراب. لقد ربط العديد من المثقفين بين أمريكا والرأسمالية، ومعاداة أمريكا يعني معاداة للرأسمالية، دون أن يعني ذلك أن أمريكا هي البلد الرأسمالي الوحيد الذي ترمز ناطحات السحاب فيها على القوة والرغبة الشديدة لكسب المزيد من المال، لقد ضم المثقفون فرنسا ودول أوربية أخرى للآراء المعادية لأمريكا، هذا العداء الذي ترسخ بالنسبة لفرنسا في الأدب الفرنسي بحلول القرن التاسع عشر. وتطور هذا العداء بأشكال مختلفة في القرن العشرين حيث كان تصور العديد من المثقفين الفرنسيين تحمل لأمريكا جل خطايا الرأسمالية.

وبالنظر إلى ما أورده المؤلف عن مناهضة الرأسمالية، يرى بأن مناهضة العولمة تكتسي أهمية معينة في تاريخ مناهضة أمريكا، وذلك حين أضيف الطابع المؤسسي على الهجوم المعادي للرأسمالية من خلال إنشاء "المنتدى الاجتماعي العالمي" في بورتو أليغري بالبرازيل في سنة٢٠٠٢ وغيره من الكيانات الأخرى التي منها حركة حماية البيئة والحركة النسوية. وتجدر الإشارة للتوضيح أكثر بأنه، يوجد حيّز كبير من التداخل بين الحركة الإيكولوجية والنسوية. هذه الحركة التي لعب فيها المثقفون الرجال والنساء دورًا كبيرًا منطلقين من رؤية مفادها أن الطبيعة على أنها أنثى، وسعت الحركة الايكولوجية والنسوية إلى ربط استغلال الطبيعة باستغلال النساء.

وفي الأخير، يرى المؤلف، بأنه من أجل الحصول على الوفاق بين العقل والمال، على المثقفين والبرجوازيين أن يدركوا أن الحرب بينهما لا تفيد، وأنه لا يمكن لأي من الطرفين تحمل تبعات عدم التفاهم المتبادل بينهما. ومن أجل هذا، وُجد المجتمع الديمقراطي لتحقيق أكبر قدر من الخير لأكبر عدد ممكن من الأفراد.

واضح جدًا أن الرأسمالية تتقن إنتاج الثروة لكنها فشلت في توزيعها بشكل عادل، وبما أن ثقافة السوق تتجاهل الأخلاق، وعلى اعتبار أن المثقفين أفراد ذوو خبرة في الثقافة الأخلاقية، يتعين عليهم تشجيع الرأسمالية مع فرض مستوى معينًا من السلوك الأخلاقي وتحسين ثقافة الرأسمالية بحيث يمكن أن تتعايش الثقافة الأخلاقية مع المجتمع البورجوازي، وذلك بوضع حدود معينة للرأسمالية. كما ينبغي إصلاح المثقفين بنفس نسبة إصلاح الرأسمالية، ذلك أن إصلاح المثقفين سينتج عنه فوائد إضافية كثيرة، وإصلاح المثقفين يتم عن طريق التعليم العمومي، الذي يمكن الأفراد من أساسيات الثقافة الأخلاقية، فعن طريق التعليم العمومي يتعلم الأفراد أخلاقيات المسؤولية وأخلاقيات الغايات النهائية. وفي هذا السياق، ينتقد المؤلف التعليم الجامعي الذي قال عنه بأنه تعليم يتعلم فيه الطلاب مهارات تساعدهم في الحصول على وظيفة، لكنهم لا يتلقون أساسيات الثقافة الأخلاقية.

خاتمة

لقد خلق الصراع بين العقل والمال قصصًا أكثر إثارة، وهذا الصراع هو الصراع الأكبر الذي لم يتم إنهاؤه في المجتمع الحديث الذي تميزه الاضطرابات والأخطار والأزمات الخطيرة المتزايدة. ومن أجل أن نقوم بذلك، كما يقترح المؤلف، يجب أن نقوم بفهم ماهيته أولاً. وهو أمر ليس من السهولة بمكان بسبب كون الصراع بين العقل والمال مرهونًا بالتغيرات الاجتماعية والاقتصادية والفكرية والسياسية من جهة، وكون الصراع من جهة ثانية، يدور حول العقل الإنساني وفضائله. وهٰذا هو الّذي أشعل الفتن والحروب والصراعات الدمويّة على مرّ التاريخ، وإلى يومنا هٰذا، حيث فقد الناس الأمن الاجتماعي، والتعايش السلمي.

وفي الوقت الراهن، يعتقد المرء أن الصراع بين العقل والمال قد تجاوز أخيرًا المرحلة الحرجة، وأن حُمى معاداة الرأسمالية قد انتهت، وأن هذا الصراع لم يعدّ مهمًا في تاريخ المجتمع الغربي. ولكن هذا التفكير قد جانب الصواب. وقد تبيّن لنا من خلال عرض الكتاب كيف تسعى الرأسمالية (التجارية)، على مرّ التاريخ، وإلى يومنا هٰذا، إلى أضعاف أو القضاء على العقل الإنساني بطرائق شتى وبمسميات مختلفة؛ من أجل أن يتحوّل الناس إلى مجرّد آلات، يسهل السيطرة عليها، وتوجيهها في الاتجاه الّذي يخدم مصالحها الربحية المجردة من الأخلاق والفضائل الإنسانية. كما تبين لنا، أن العقل من جهة أخرى، أبى إلا أن يعلن في كل مرة عن نفسه وبأساليب مضادة لإحباط ولو نسبيًا ما تسعى إليه الرأسمالية. وهكذا يبدو جليًا صعوبة إنهاء الصراع، ولم يتبق للطرفين سوى السعي إلى التخفيف منه تفاديًا للثورات والثورات المضادة التي تودي بحياة البشر بلا فائدة.

الإحالات المرجعية:

(١) كاهان ألان سيدني، **العقل في مواجهة المال**: الحرب بين المثقفين والرأسمالية، ترجمة مطيع حمد، تدقيق هويوى عدنان، المركز العربي للأبحاث، الرباط،٢٣ . ٢. ص٣١.

(٢) كاهان ألان سيدني، **العقل في مواجهة المال**، ص ١٢٤.

(٣) كاهان ألان سيدني، **العقل في مواجهة المال**، ص ١٨٠.

(٤) كاهان ألان سيدني، **العقل في مواجهة المال**، ص ١٩٦.

(٥) هاريس جوزيه في تونيز فرناند، **الجماعة والمجتمع المدني**، ترجمة حريري نائل، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الطبعة الأولى، بيروت، ٢٠١٧، ص٧.

(٦) كاهان ألان سيدني، **العقل في مواجهة المال**، ص ٢١٠ – ٢١١.

(٧) كاهان ألان سيدني، **العقل في مواجهة المال**، ص ٢١٥.

(٨) كاهان ألان سيدني، **العقل في مواجهة المال**، ص ٢٢٩.

(٩) كاهان ألان سيدني، **العقل في مواجهة المال**، ص ٢٤٣.

(١٠) كاهان ألان سيدني، **العقل في مواجهة المال**، ص ٢٨٩.

(١١) كاهان ألان سيدني، **العقل في مواجهة المال**، ص ٣٢٥.